طبيعة المجتمع في فكر مالك بن نبي التربوي

إعداد وترجمة: د. عمر نقيب

مقدمة

الأصل في هذا المقال أنه جزء من دراسة علمية تمّ إنجازها باللغة الانجليزية، قدمتها سنة 2004 للحصول على شهادة دكتوراه الفلسفة (Ph.D) في فلسفة التربية، من جامعة بترا بماليزيا، وعنوان الدراسة: «**مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي**»،

«Malik Bennabi's Approach to the Educational Problem in the Muslim World».

«Towards a New Theory of Education for the Contemporary Muslim Word»

ولقد قمت بترجمة هذه الدراسة كاملة إلى اللغة العربية، ونعرض منها هذا الجزء الذي كتبته تحت عنوان: «طبيعة المجتمع» في سياق عرض وتحليل ومناقشة أسس النظرية التربوية في فكر مالك بن نبي التربوي.

تقديم

من خلال القراءة المتأنية لمنهج مالك بن نبي في تناول طبيعة المجتمع، يمكن للقارئ أن يتبيّن تركيزه على البعد الوظيفي للمجتمع أي، أنّه تناول المجتمع من وجهة نظر وظيفية بعيدًا عن التأمّل الفلسفي المنقطع عن الواقع العملي لحياة الناس. هذا، على الرغم من أنّه تناول بعض المفاهيم النظرية في الباب التمهيدي من كتابه «ميلاد مجتمع» على سبيل المثال، كضرورة منهجية فقط. وبعبارة أخرى، فإنّ تركيز مالك بن نبي على البعد الوظيفي التربوي للمجتمع لم يمنعه من أن يُضمّن دراسته بعض الأفكار ذات الطابع الفلسفي أو النظري على الأقل، أثناء تناوله لطبيعة المجتمع كضرورة منهجية اقتضاها التمهيد للدراسة الفعلية بتوضيح مجموعة من المفاهيم النظرية المحتاج إليها لفهم المقصود من الدراسة. وقد برّر مالك بن نبي نفسه هذا التمهيد بتأكيده على أنّ «في علم الاجتماع توجد بعض المفاهيم التي تبدو أحيانًا غير محدّدة في ذهن القارئ في البلاد الإسلامية... وقد يؤدّي تعقّد المصطلحات إلى مناقشات هي أقرب إلى الطابع الأدبي منها إلى منطق العلم... ولهذا، لابد، بالنسبة إليه، من أن ننشئ أوّلًا الإطار النظري للموضوع قبل معالجته من الزواية التاريخية.[1]

ومن أمثلة منهجه هذا في تناول طبيعة المجتمع أنّه منذ البداية أكّد على أهمية تحديد المفاهيم لأنّه يرى أنّ «التعاريف التي تقدّمها القواميس ليست إلا تحديدًا خارجيًا وصفيًا لا يعطي تفسيرًا للوظيفة

[1]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 9.

التاريخية للمجتمع، ولا يفسّر تنظيمه الداخلي الذي يمكّنه من أداء هذه الوظيفة».[2] وبناءً على هذا الوضع، لا بد من صياغة مفهوم يكون أقرب إلى خدمة الهدف من الموضوع أي، «تحديدًا جدليًا، وبعبارة أخرى تحديد الموضوع في نطاق الزمن».[3] ولا شك في أنّ عبارة «في نطاق الزمن» ليست إلاّ من قبيل تناول الظاهرة موضوع الدراسة كما هي في الواقع الفعلي للحياة البشرية وفي مرحلة حضارية محدّدة لمجتمع ما من المجتمعات البشرية التي عرفها التاريخ.

كما اتّسم تحليل مالك بن نبي لطبيعة المجتمع بالتشعّب والامتداد. لذلك، ونظرًا لطبيعة هذه الدراسة والأهداف التي نتوخّاها منها، وجدنا أنفسنا مضطرين لتركيز اهتمامنا على القضايا التي يمكن أن تساهم في توضيح مدى مراعاة مالك بن نبي للبعد التربوي لطبيعة المجتمع سواءً في فهم طبيعته أم في وضع آليات بنائه وتأهيله لأداء وظيفته التاريخية في الحياة أم أدوات المحافظة على البناء لتمكينه من الاستمرار في أداء هذه الوظيفة.

كما أنّه من خلال تناوله لطبيعة المجتمع من وجهة نظر وظيفية تربوية، كان يرمي إلى بلورة الآليات العملية التي تمكّن المسلمين من أعادة البناء واستئناف الوظيفة التاريخية للمجتمع الإسلامي في التاريخ، مبرِّر وجوده واستمرار هذا الوجود. وفيما يأتي نستعرِض بشيء من التفصيل تحليله لطبيعة المجتمع من وجهة نظر وظيفية تربوية.

تعريف المجتمع

يرفض مالك بن نبي أي تعريف للمجتمع لا يأخذ بعين الاعتبار البعد الحضاري للوجود البشري ووظيفة الإنسان في التاريخ؛ والسبب في ذلك هو أنّ تعريفًا يخلو من البعد الحضاري للوجود البشري، لا يمكن أن يقدِّم تفسيرًا واضحًا ومقنِعًا للوظيفة التاريخية التي هي مبرِّر وجود المجتمع البشري في هذه الحياة ولا التنظيم الداخلي الذي يمكّنه من أداء مثل هذه الوظيفة. فهو لا يعدو أن يكون مجرّد تفسير وصفي للمجتمع. وبناءً على هذا، فإنّ أيّ تعريف لابد له من الاستجابة لشرط التعريف الوظيفي (Functional Definition) الذي يشير إلى مبررات الوجود البشري في التاريخ وشروط الاستمرار الإيجابي لهذا الوجود. ولهذا، فإذا أردنا ضمان التعريف المطلوب كما أشرنا، لا بد من توضيح الوظيفة التاريخية للمجتمع والتنظيم الداخلي –النفسي والأخلاقي- (Internal Organization) الذي يمكّنها من الأداء الناجح لهذه الوظيفة.[4]

ونتيجة للاعتبارات السابقة، فقد عرّف مالك بن نبي المجتمع باعتباره «الجماعة البشرية التي تتطوّر ابتداءً من نقطة يمكن أن نطلق عليها مصطلح (ميلاد)، بوصفه (حدثًا) يسجِّل ظهور شكل من

---

[2]- نفسه: 15.

[3]- نفسه: 15.

[4]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 15.

أشكال الحياة المشتركة تعبِّر عن نفسها من خلال حركة تغييرية هادفة مستمرة.[5] وبعبارة أدق، «الجماعة التي تغيِّر دائمًا خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير».[6] ولهذا، فالمجتمع، بالنسبة إلى مالك بن نبي، ليس مجرّد مجموعة من الأفراد، بل هو تنظيم معين ذو طابع إنساني يتمّ طبقًا لنظام معيّن.[7] ومن أجل هذه الاعتبارات كلّها، لا تكتسب الجماعة البشرية صفة المجتمع إلا عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. وهذا يتّفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة.[8]

وبالتأمل في هذا التعريف يمكن التوصّل إلى تحديد العناصر الأساسية التي يتضمّنها، والتي ينبغي مراعاتها لتشكّل باجتماعها حسب مالك بن نبي التعريف المتكامل للمجتمع من وجهة نظر وظيفية تربوية. وأوّل هذه العناصر نقطة البدء في بناء المجتمع وهي الميلاد باعتباره حدثًا يسجِّل ظهور شكلٍ من أشكال الحياة المشتركة الهادفة أي، التي تستهدف إنجاز مهمة محددة في التاريخ. إذ لولا ارتباطه بأداء وظيفة لما سمّي ميلادًا، فالمجتمع الذي يريد أن يضفي على وجوده الكوني دلالة تاريخية لا مناص له من أن يحدّد لنفسه وظيفة محدّدة في التاريخ لا تقتصر على مجرّد المحافظة على النوع أو توفير وسائل العيش الكريم لأفراده؛ فهذه وسائل وليست غايات؛ بل هي مقاصد تُقصَد قصد الوسائل لا الغايات أي هي وسائل لغايات أسمى وأبعد.

كما نجد أيضا أنّ هذه الحياة المشتركة تتميّز بخصائص هي التي تميِّزها عن غيرها من التجمّعات الأخرى فضلًا عن الحيوانية منها. ومن أهم هذه الخصائص الحركة من حيث هي مشروع حضارة يستهدف التغيير نحو الأفضل باستمرار؛ وأنّ الوسائل المعتمدة لإنجاز مهمة التغيير هذه إنّما هي من إنتاج التفكير الحر المستقل أو بالأحرى من ثمار هذه الحياة المشتركة. وفي هذا إشارة من مالك بن نبي إلى خاصية الأصالة (Authenticity and Originality) في التفكير والنظر والتصرّف؛ وأنّ التجارب غير الأصيلة ليس من السهل أن يُكتَب لها النجاح ولو نجحت في «مسقط رأسها». ذلك لأنّ التفكير غير الأصيل غالبًا ما يميل إلى التقليد والمحاكاة واستنساخ ما أنتجه اجتهاد الغير دلالة على العجز عن الاجتهاد، وتغييب العقل بدلًا من إعماله من أجل الإبداع والتجديد وتكييف الواقع من أجل تجديده لا التكيّف معه مهما كان من باب «اللحاق بركب الحضارة» بمعاكسة سننها الثابتة التي لا تتخلّف. وفي هذا السياق، يعجب المرء من طائفة من الناس لا يرون الحلول لمشاكل بلادهم إلاّ إذا استوردَت من هناك وكأنّ الأرض التي نعيش فيها أصيبت بالعقم فلا تنجب وبالجدب فلا تنبت؛ وقد تناسى هؤلاء أنّ العقل

---

[5]- نفسه: 16.

[6]- نفسه: 17.

[7]- نفسه.

[8]- نفسه: 18.

الذي صاغ مشاريع تلك الحلول المستوردة إنّما العقل المهاجر إلى هناك لأنّه لم يجد في مسقط رأسه البيئة المناسبة والمناخ المشجِّع والوسط الإيجابي المحفِّز على تفتيق مواهبه وطاقاته الحيوية لتصبح طاقة اجتماعية تعمل وتنتج، فلم يكن له بد من الهجرة إلى هناك حيث الاعتبار بكل أبعاده والتشجيع بكل وسائله المغرية. وبهذا، فقد كان يكفي استرجاع العقول لا الحلول وذلك بردّ الاعتبار لها اجتماعيًا ومعنويًا وماديًا فنوفِّر المال والجهد والوقت.

الخصوصية الثقافية والمجتمع

وكما هو ملاحظ، فإنّ هذا النوع من التجمع البشري محكوم ابتداءً بخاصيته الديناميكية والتغيير المستمر لخصائصه نحو الأفضل من خلال تبنّي رؤية فكرية محدّدة توجّه مسيرته التاريخية في هذه الحياة نحو غاية محدّدة تنسجم ومقتضيات رسالته في التاريخ وفقًا لنظرية الحياة التي يتبنّاها المجتمع. ولا شك في أنّ هذه الغاية المحدّدة تتضمّن مشروعا متكاملًا يستهدف تحقيق مثل وطموحات المجتمع الحضارية في الحياة.

ومن أهم ما يمكن استنتاجه ممّا سبق أنّ الحياة البشرية لا يمكن إلا أن تكون مشروعًا هادفًا يستهدف تجسيد مثل الأمة الثقافية وطموحاتها الحضارية في التاريخ. غير أنّ أيّة أمّة باشرت حركتها في الحياة وهي ذاهلة عن هذه المعاني هي أمّة لم تستوفِ بعدُ مؤهِلات الحضور الهادف في التاريخ أي، حضور يضمن لها موقعًا يمكن لها أن تساهم به في صناعة التاريخ أو على الأقل التأثير في وجهته كما تصنع الأمم الفاعلة في هذا العصر الذي نعيشه.

ولا يكتفي مالك بن نبي بالذي قدّمه من تعريفٍ للمجتمع؛ بل يذهب بعيدًا ليضفي عليه أبعادًا ثقافية وحضارية تخدم الهدف النهائي من مشروعه الإصلاحي الكبير. وفي البداية يشير إلى خاصية التميّز الثقافي (Cultural Peculiarity) للمجتمع؛ إذ يعتبر أنّ لكل مجتمع خصوصية حضارية وتاريخية؛ وأنّ «العناصر الاجتماعية التي تَسِمُ الثقافات المختلفة ليست كلّها قابلة للتداول بحكم أنّ الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين خاصّة بها، شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية». [9] ولهذا، فبالنسبة إليه، النظر في مشكلات المجتمع من خلال نماذج ثقافية (Cultural Paradigm) مغايرة لهُ، تحمل من الخطر على الوجود التاريخي للمجتمع ما يمكن أن يهدّد مستقبل أجيال برمّتها.

ولعلّ بعض التجارب التاريخية وخاصة في العالم الإسلامي كافية للدلالة على صحّة هذا الرأي؛ بل قد نسمح لأنفسنا لنقول أنّ استنساخ التجارب لم يزِدْ مشكلات الإنسان والمجتمع والحضارة عندنا إلاّ حدّة وتعقيدًا. ولنا في ثمار تطبيق التجربة الاشتراكية في كثير من بلاد العالم الإسلامي خير مثال على ذلك؛ ومن بعد ذلك تجربة الليبرالية وتحرير الاقتصاد كذلك. ففي الوقت الذي رأينا تجارب الإصلاح قد آتت أكلها في «مسقط رأسها» فقد كانت وبالاً على مستورديها بسبب تصادمها مع الخصوصيات

[9]- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي: 80- 81.

النفسية والثقافية للبيئة المستورِدة لها خاصة وأنّها لم تخضع لما هي في حاجةٍ إليه من التحليل والتكييف والتركيب من أجل جعلها منسجمة مع الخصوصيات النفسية والثقافية للواقع الفعلي للمجتمع المستورِد. والمكتبة العربية والإسلامية غنية بالإفاضة في هذا الموضوع الذي أصبح حديث العام والخاص من أبناء العالم الإسلامي إلا من شذّ منهم عن سواد الأمّة.

الجذور الدينية للمجتمع البشري

وفي سياق تحليله لأصول المجتمع البشري، أشار مالك بن نبي إلى ضرورة التوقّف والنظر فيما يسمّيه الميلاد (Birth) أو نقطة انطلاق المجتمع لممارسة حركته التغييرية نحو أهدافه التاريخية لأهميتها في تحديد المسار المستقبلي لأجيال المجتمع. إذ ترجع أهمية هذه اللحظة في تاريخ المجتمع إلى أنّها هي المنعطف الذي يحدّد كل الخصائص العضوية التي سوف يكون عليها المجتمع في مستقبل أيّامه. فلحظة الميلاد هي بمثابة النطفة التي تحمل كل الخصائص التي سوف تطبع شخصية الإنسان في مستقبل أيّامه.

ومن أهم ما نهتدي إليه من معانٍ عند استحضار فكرة «الميلاد» وأنّها بمثابة «النطفة»، أنّ من أهم شروط نجاح بناء المجتمع التاريخي المتحضِّر أن يتوفّر أصحاب المشروع على رؤية شاملة ومتكاملة عن كل مواصفات المجتمع الثقافية والحضارية للمجتمع المنشود وعن مفاصل عملية البناء بما يضمن النجاح في إنجاز البناء والمحافظة عليه واستمراره في أدائه لرسالته في التاريخ كما حدّدتها له نظرية الحياة التي يتبنّاها أفراد ذلك المجتمع.

غير أنّ اللافت للانتباه في هذا المقام أنّ مالك بن نبي يسلّط الضوء على قضية محورية في تفسير الحركة التاريخية لنشوء المجتمع وهي الأصل الديني لكل تجمّع بشري عرفه التاريخ. ويؤصِّل مالك بن نبي لهذه القضية فيؤكّد أنّه إذا كان ميلاد المجتمع يمثِّل لحظة انطلاق شرارة بناء الحضارة؛ وأنّ الحضارة لا تظهر في أمّة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو على الأقل تقوم في أساسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام؛ فإنّ الأصل في كل مجتمع إنّما هو الفكرة الدينية.[10]

وإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدل على عمق الجذور الروحية للمجتمع البشري؛ إذ هو مبرر وجوده واستمرار هذا الوجود. وبناءً على هذا، يصبح من غير المعقول تناول طبيعة المجتمع بالدراسة وقصدنا من هذه الدراسة سواءً التفسير والفهم أم البناء أم إعادة بنائه، من دون مراعاة الأصل الروحي أو الغيبي للمجتمع البشري بحكم أنّ أي مجتمع إنّما يستمدّ مبرّرات وجوده الكوني من مجموعة من القيم الغيبية المقدّسة. بل إنّ تناول قضية المجتمع خارج إطار جذوره الروحية ليس أقل من تحريف لطبيعة المشكلة وخروج عن إطارها الصحيح. ولهذا، فإنّ مالك بن نبي يشدّ انتباهنا إلى أهمية مراعاة هذه الحقيقة

[10]- مالك بن نبي، شروط النهضة: 51.

الكونية لأيّ مجتمع إنّما يعتمد في لحظات بنائه الأولى على مجموعة من المبررات الغيبية. والدليل على ذلك أنّه «كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوّره الاجتماعي، وجد سطورًا من الفكرة الدينية. كما أظهر علم الآثار بقايا آثار خصّصها الإنسان لشعائره الدينية؛ أيًّا كانت تلك الشعائر... من كهوف العبادة في العصر الحجري إلى عهد المعابد الفخمة، جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه فولدت الحضارات في ظل المعابد...»[11].

ومن هنا يتعجّب المرء من مختلف محاولات البناء التي تستهدف بناء مجتمع ذي حضور متميّز في التاريخ لا تأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة الكونية في حياة البشر؛ بل تتجاوز ذلك في بعض الأحيان لتعتبر مجرّد التنبيه إليها ضربًا من التخلّف والتراجع وأنّ التقدّم والتحضّر ليس إلاّ في اللهف وراء الجديد مهما كان.

المجتمع بين النوعية والكمية

من الأساسيات التي انطلق منها مالك بن نبي في التعامل مع طبيعة المجتمع اعتباره أنّ المجتمع لا يقاس بعدد ما فيه من أفراد وإنّما بنوعية هؤلاء الأفراد، والأفكار التي يحملونها والوظيفة التي يطمحون إلى إنجازها. لهذا، لا ينبغي تناول المجتمع من وجهة نظر كمية عددية صرفة. والسبب في ذلك، حسب مالك بن نبي، هو أنّ الثروة الحقيقية للمجتمع لا يمكن أن تقاس بما لديه من أشياء أو عدد ما فيه من أفراد، وإنّما بما ينتجه من أفكار.[12] هذا، الرغم من أن للعدد موقعًا ودورًا لا يُستهان بهما في مشاريع النهوض المختلفة. ويدعِّم مالك بن نبي رأيه هذا بكون المجتمع «الأمّة» يمكن أن يتجسّد لحظة ميلاده في فرد واحد يحمل في داخله كل المكوِّنات الجنينية لبناء المجتمع في المستقبل؛ وللتدليل على صحة هذا الرأي استند إلى القرآن الكريم، في قوله تعالى من سورة النحل: (إنّ إبراهيم كان أمّة...).

ومعلِّقًا على ذلك بقوله، «... ومع ذلك فإنّ هذه الصورة الجديدة للحياة المشتركة قد تبدأ بفرد واحدٍ يمثّل في هذه الحالة نواة المجتمع الوليد، وذلك بلا شك هو المعنى المقصود من كلمة «أمّة» عندما أطلقها القرآن الكريم على إبراهيم عليه السلام»[13].

وهكذا، شأن الدعوات السماوية بل ودعوات الإصلاح أيضًا؛ إذ غالبًا ما يبدأ المصلح دعوته منفرِدًا فيفعل الله به ما يشاء ويجسِّد فيه حكمته ويبارك له في دعوته فيصبح له من الأتباع ما يمكن أن يبني به مجتمعًا يذود عن الفكرة التي نهض من أجلها وحيدًا. ولنا في سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم القدوة الحسنة؛ فقد بعثه الله تعالى ولم يكن يومئذٍ على وجه الأرض مسلم يوحّد الله تعالى.

---

[11]- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: 69.

[12]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 37.

[13]- نفسه: 17.

وقد قصّت علينا السيرة العطرة المسيرة بأكملها. وقد بلغ هذا الدين الذي جاء من أجله النبي الكريم صلّى الله عليه وسلّم المشارق والمغارب حتّى أصبحت أمّة الإسلام أكبر أمة على وجه الأرض كما لم يعُد على وجه الأرض أيضًا من يجهل دعوته، صلّى الله عليه وسلّم، إلاّ جاحد أو مكابر. ولنا أيضًا في سيرة الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله تعالى البيان الأوفى. فقد كان التجسيد الحقيقي للرجل الأمة؛ إذ أخرج الله عز وجلّ على يديه من جنين أفكاره أمّة بعثها على يديه من بعد موت وركّبها من بعد انحلال؛ وكل من تابع قصة جهوده الإصلاحية يعرف أنّ جنين الأمة الجزائرية الحديثة إنّما وُلِد في تلك الليالي المباركة التي قضاها مع رفيق دربه الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بجوار قبر النبي الأكرم صلّى الله عليه وسلّم.

وقد ضرب مالك بن نبي أمثلة حول أهمية منهج النظر إلى طبيعة المجتمع وآليات بنائه أو إعادة بنائه، وآثار ذلك على فعالية الأداء البشري أثناء عملية الإنجاز وكيف أنّ لرصيد الأفكار الذي يملكه المجتمع أو الفئة التي تضطلع بمهمة الإنجاز الدورُ الحاسم في تحديد مصير المشروع كلّه. إذ لفت انتباهنا إلى دولة ألمانيا بعد الحرب الكونية الثانية أين دُمِّر عالم الأشياء فيها عن آخره، ولكن سرعان ما أعادت بناء كل شيء، بفضل رصيدها من الأفكار الذي لم تصل إليه يد التخريب والتدمير.

صنفان من المجتمع

كما يميّز مالك بن نبي منذ البداية بين نوعين من المجتمعات، المجتمع الطبيعي (Natural Society) والمجتمع التاريخي (Historical Society). ويعتبر أنّ التمييز بينهما شرط حاسم وضرورة منهجية للتناول السليم لطبيعة المجتمع. هذان النوعان يستغرقان كل التجمّعات البشرية التي عرفها التاريخ البشري بحكم أنّ أي تجمع بشري إمّا أن يتّخذ شكل مجتمع طبيعي ساكن أو مجتمع تاريخي متحرّك. كما أنّ نقطة الفصل بينهما هي قانون الحركة (Movement) والتغيير (Change) ومقتضياته، كما سيأتي بيانه لاحقًا.

ومن خلال تحليل هذين النوعين من المجتمعات، يلفِت مالك بن نبي انتباهنا إلى مفهومين أساسيين لهما الأثر العميق في تحديد نظرة الباحث إلى طبيعة المجتمع ذاته وخاصة فيما تعلّق بميلاد المجتمع وتطوّره ومصيره. هذان المفهومان هما السبب (Cause) والوسيلة (Mean).

إنّ عدم التمييز بينهما له من الأثر على مسار الحياة البشرية ما يمكن أن يحدّد مصير أجيال لمّا تنقلب الوسيلة إلى سبب أو غاية بسبب اللبس الذي يصيب الفكر في بعض الظروف التاريخية التي يمر بها المجتمع. ذلك لأنّ السبب إنّما وُضِع ليفسّر الوجود ومبرّر الوجود والهدف من الوجود الذي ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان ويعمل من أجل تحقيقه في حياته. كما أنّ حضور الهدف بشكل واضح في حياة البشر له وظيفة أخرى لا تقل أهمية عن التفسير وهي أنّه يضفي دلالة ومعنى متميِّزًا على الوجود البشري ذاته. أمّا الوسيلة فهي الأداة التي تساعد على تحقيق معاني السبب. والفرق بينهما واسع كما هو ظاهر. ف»الغريزة مثلاً، كما يقول مالك بن نبي، وسيلة لإنشاء المجتمع، وليست سببًا في إنشائه، إذ يضمّ المجتمع

ما هو أكثر من مجرّد مجموعة من الأفراد تدفعهم غريزة التجمّع ليؤلّفوا صورته، يضمّ عدداً من الثوابت (قيم ومبادئ)، التي يُدين لها بدوامه، وبتحديد شخصيته في صورة مستقلّة تقريبًا عن أفراده». [14] وبعبارة أخرى، فالمجتمع يحمل في داخله الصفات الذاتية التي تضمن استمراره، وتحفظ شخصيته ودوره عبر التاريخ؛ وهذا العنصر الثابت هو المضمون الجوهري للكيان الاجتماعي... ويتجسّد في نهاية الأمر في شبكة علاقاته الاجتماعية التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، وتوجِّه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به في التاريخ». [15] وهنا تحضرني في البال تلك المقاربات السياسية التي تريد أن تطبع مشروع تربية الأجيال بطابع السعي للاستجابة لمطالب الجسد، هذا، حتّى لا نقول البحث عن الطعام، بجعل الهدف الأسمى للتربية والتعليم والتكوين الحصول على منصب شغل مناسب يضمن للفرد «العيش الكريم» بحيث تُجنّد لهذا الهدف كل مقدرات المجتمع وهو في حقيقة الأمر ليس إلاّ وسيلة لما هو أهم من ذلك بكثير عندما نستحضر الفرق بين السبب والوسيلة كما نوّهنا آنفًا. ولهذا، فمن أهم ما ينبغي أن نقف عنده عند محاولة التنظير للتربية على طريق بناء مجتمع الحضارة ضرورة التمييز الدقيق بين مصطلحات هي في الحقيقة مفاهيم أساسية حاسمة في التعامل مع المشكلة التربوية. ويدخل في هذا السياق الفرق بين كل من السبب والوسيلة والهدف والغاية. فالتعامل معها يكون بالترتيب الذي قدّمناه بها لا غير.

المجتمع الطبيعي

يقول مالك بن نبي أنّ «المجتمع الطبيعي أو البدائي هو المجتمع الذي لم يعَدِّل بطريقة مُحِسّة المعالم التي تحدّد شخصيته منذ كان... فهو مجتمع ساكن ذو معالم ثابتة، كالمجتمعات الموجودة في مستعمرات النمل أو النحل أو القبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار والقبيلة العربية في العصر الجاهلي». [16] ولذلك، فإنّ هناك نوعًا من التجمعّات البشرية التي لا تتجاوز مجرّد محاولة الاستجابة لمطالب الغريزة وعلى رأسها مطالب الجسد. ويتمثّل هذا النوع عادة في المجتمعات البدائية التي لم تتمكّن من القيام بأيّة محاولة لإحداث تغيير في خصائص أفرادها أو أسلوب الحياة أو أدواتها منذ لحظة ميلاده. كما يتمثّل أيضا في بعض المجتمعات الحديثة التي لم تستطع إحداث تغيير في بنيتها وخصائصها؛ إذ على الرغم من مرور عقود من الزمان على استقلالها لم تتمكّن من بلوغ درجةٍ من البناء الدالة على انتقالها من وضعية التخلّف الناتج عن السكون إلى وضعية التقدّم الناتج عن الحركة التغييرية الهادفة وفقًا لرؤية رسالية متكاملة لنموذج الفرد والمجتمع المنشودين.

---

[14]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 13.

[15]- نفسه: 14.

[16]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 9.

وقد يجد بعض المتعاطفين مع الواقع صعوبة في التسليم بهذه الرؤية غير أنّ هذا هو الواقع الفعلي لهذه المجتمعات. إذ كيف يعقل أن تبقى بعض هذه المجتمعات عالة على غيرها من الأمم المتحرّكة على الرغم من أنّها قد تماثلها غيرها من الأمم المتحرّكة في العمق التاريخي الممتد في شعاب الزمان.

وكما هو واضح، فإنّ البساطة والسذاجة هما اللذان يطبعان مختلف مناحي النشاط البشري في مثل هذه التجمعّات ا لبشرية. بل وخاصية السكون في الفكر والعمل من حيث هي أخص ما يتميّز به أيضا. في حين أنّ غياب الحركة باعتبارها عملية تغيّر مستمّر وهادف نحو الأفضل لا يمكنُ أن تغيب عن عين الملاحظ لهذا النوع من المجتمع؛ بل يمكنك أن تغيب عن هذه المجتمعات ردحًا من الزمن فإذا عدت إلى ذات المكان وجدته لازال على حاله. غير أنّ التأمّل في مختلف ما كتبه مالك بن نبي عن طبيعة المجتمع يقودنا إلى الاعتقاد بأنّ مشكلة المجتمع الطبيعي لا تتوقّف عند حدود البساطة والسذاجة والسكون فقط بل تتجاوز ذلك إلى غلبة العجز عن التفكير الإبداعي الذي يمكّن المجتمع من اكتشاف مختلف البدائل لمواجهة المشكلات المستجدّة في الحياة اليومية من أجل التجدّد المفضي إلى التجديد.

كما قد يحدث لهذا المجتمع أن يكون غنيًّا بموارده البشرية والطبيعية والمالية ولكنّه يظل عاجزًا عن إحداث نقلة تنموية نوعية لأفراده في مختلف مجالات الحياة البشرية؛ فترى هؤلاء يعانون من مختلف مظاهر التخلّف في التفكير والتصرّف، والتوقّف عن ممارسة السلوك الحضاري؛ وما يتمخّض عنه ذلك الوضع من تجلّيات التخلّف مثل الفقر والبطالة والندرة والأمية بأنواعها المختلفة، التقليدية منها والحديثة، والتبعية وسوء التغذية وتفاقم نسبة الرسوب والتسرّب المدرسي وقابلية الاستلاب والآفات الاجتماعية والأخلاقية المختلفة مثل المخدّرات والفواحش والتسيّب واللامبالاة الجماعية والجرائم المنظّمة كتحويل الأموال وتبييضها؛ كل ذلك كتعبير عن فشل المجتمع في إيجاد وتجسيد منظومة تنموية راشدة تستولي على اهتمام الفرد وتستغرق جهده ولا تترك له مجالاً للتفكير في فضاءات أخرى غير مناسبة لتفريغ طاقاته الخلاّقة من جهة، وقصد الاستجابة لمطالبه الحيوية الطبيعية كإنسان بالعدل والإحسان من أجل التفرّغ للمهام التاريخية الكبرى من جهة أخرى.

إنه، ونتيجة لهذا العجز المركّب عن التفكير الإبداعي إن على مستوى الفرد أو مستوى المؤسسة يظهر ما يمكن تسميته بضيق الأفق الحضاري بحيث تضيق اهتمامات الناس وتقتصر في حدود مصالح «الأنا» ولكن بشكل مشوَّهٍ ومنحرف لا يخدم في الواقع المصالح الحقيقية للفرد ألا وهي تمكينه من ممارسة السعادة كمنهج حياة لا البحث عنها إذ ترى بعضهم يستغرق حياته من أجل جمع الثروة بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، وبسبب ذهوله عن الغاية الأصلية لجمع الثروة والوسائل الشرعية لذلك تنقلب الوسيلة غاية فيصدق عليه معنى الحديث القدسي الذي رواه الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن ربّه «...فتركض فيها ركض الوحش في البرية... ولا ينالك منها إلا ما قسمتُه لك...». فيقضي الفرد حياته في همّ وغم ولا ينال منها إلاّ ما كُتِب له منها.

وممّا يؤكّد ما ذكرناه آنفًا ما أشار إليه مالك بن نبي من أنّ المجتمع الطبيعي باعتباره مجتمعًا متخلّفًا «ليس موسومًا حتمًا بنقصٍ في الوسائل المادية، وإنّما بالافتقار في الأفكار؛ ويتجلّى ذلك خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفّرة لديه أو في عجزه عن إيجاد غيرها وعلى الأخص في أسلوب طرح مشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق... فهناك إذن فاقة حقيقية في الأفكار تظهر في المجال السياسي والاقتصادي على شكل موانع كابحة، عن الحركة، تتوافق من وجهة نظر علم الاجتماع مع الخصائص النفسية- الاجتماعية التي يتميّز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر».[17]

أليست أراضي بلاد الإسلام من أغنى بقاع الأرض من حيث ثرواتها الطبيعية والبشرية؟ فلماذا لا زالت تعدّ من أكثر دول العالم تخلّفًا على الرغم من مُضيّ أكثر من عدّة عقود على جلاء الاستعمار من أراضيها؟ فظاهرة التخلّف إذن ليست في انعدام الوسائل أو ندرتها على الأقل وإنّما في عجز العقل عن استثمارها بشكل يمكّن المجتمع من توفير ضمانات التقدّم بالمعنى الذي يرقّي الحياة البشرية ويرفعها إلى أفق التكريم الربّاني للإنسان من جهة، ومستوى على الفعل التاريخي المؤثّر من جهة أخرى. وفي هذا السياق، نبّه مالك بن نبي منذ البدء أنّ منهجه في تناول طبيعة المجتمع ليس معنيًا بهذا النوع من التجمّعات البشرية لأنّ «كل جماعة لا تتطوّر، ولا يعتريها تغيير في حدود الزمن، تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة مجتمع».[18]

كما أنّ الهمّ المركزي الذي استولى على اهتمامه منذ البدء هو أنّه عاش أزمة أمّته بكيانه كلّه فنذر حياته لها وابتعد عن كل ما يشغله عن ذلك. ولهذا، كما قال عنه عثمان بكر (1991) أنّه «مفكّر له أولوياته الفكرية بحكم أنّه لم يكن لِيسمحَ بفكره لِيجولَ في أية مشكلة».[19] ومن هذه الزاوية بالذات يبرز اهتمام مالك بن نبي بالتركيز على دراسة المجتمع التاريخي.

المجتمع التاريخي

إنّ المجتمع التاريخي هو ذلكم النوع من المجتمع الذي استطاع أفراده أن يتجاوزوا وضعية المجتمع الطبيعي بإضفاء بعد حضاري ودلالة تاريخية على وجودهم الكوني من خلال إدراكهم لحقيقة الوجود البشري في هذه الحياة والوظيفة التي أوجِد من أجلها الإنسان. وبناء على هذا الفهم والإدراك يتأسّس المجتمع التاريخي ابتداءً، أين يمارس عناصرُه المكوِّنة له نوعًا من التفاعل القائم ليس على أساس مبدأ المحافظة على النوع وإنّما على أساس أداء رسالة مقدّسة في الحياة، تليق بمقام الإنسان كمخلوق مكرَّمٍ يحظى بمركز متميِّزٍ في الكون والحياة؛ هذا، بصرف النظر عن طبيعة الرؤية الفلسفية التي يتبناها المجتمع بخصوص رسالة الإنسان المقدّسة في الحياة.

---

[17]- مالك بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الإسلامي: 36- 37.

[18]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 16.

[19]- Bakar.O, Malik Bennabi's Philosophy of Science, p. 3.

وانطلاقًا من هذه الرؤية الكونية المتميِّزة، يمثِّل المجتمع التاريخي بالنسبة إلى مالك بن نبي، مجتمعًا ديناميكيًا متحرِّكًا يتّجه نحو الأفضل باستمرار؛ ولكن محكومًا بقوانين التغيير التي تستهدف التحسين المستمر لخصائصه.[20]

ولعلّ من المناسب، ونحن نناقش قانون الحركة باعتباره من أهم خصائص المجتمع التاريخي المتحضِّر، أن نشير هنا إلى النموذج الماليزي الذي عايشه الكاتب عن كثب أكثر من عقد الزمان فكان من أهم ما تمكّن من ملاحظته على هذا المجتمع التاريخي الناهض أنّ قانون الحركة الذي أشار إليه مالك بن نبي بل وجعله الأصل الذي نميِّز به بين المجتمعات، هو السمة البارزة بل والغالبة على حياة الإنسان فيه. إذ لا تكاد تجد مؤشِّرات السكون بارزة في أي منحى من مناحي الحياة البشرية عندهم.

والأكثر من ذلك، أنّ الإنسان الماليزي قد أصبح أشبه بعنصر واحد من عناصر محرّك كبير إذا تعطّل ساد العطب جميع العناصر المشتركة في تلك السلسلة؛ ومن طريف ما أذكر من تجربتي هناك أنّني في أوّل أيّامي كنت أسكن في منطقة تبعد عن العاصمة الماليزية كوالا لامبور ببعض الكيلومترات، ونظرًا لظروف شخصية متعلّقة بالمدرسة التي ألحقت بها أبنائي للدراسة فيها، إذ كانت المدرسة بعيدة فاضطررت إلى التنقّل إلى منطقة أخرى أقرب من العاصمة.

ولمّا كان لدي بعض الأصدقاء الماليزيين في منطقة السكن الأول، كنت حفظا ووفاء للصداقة التي كانت بيننا، أن أزورهم بين الحين والآخر. وقد حدث لي أن غبت عن المنطقة مدّة لا تتجاوز السنة الواحدة ولمّا ذهبت إلى هناك لم استطع أن أتبيّن الطريق المؤدي إلى المنطقة، ذلك أن التغيير بل التحسين الذي طرأ على المنطقة وتمدد العمران الذي تمّ إنجازه في مدّة قصيرة، كل ذلك يبدو من صنع الخيال خاصة في مجتمعاتنا العربية.

إذ وجدت أنّ معالم المدينة قد تغيّرت والطرق المؤدّية إلى المنطقة قد تعدّدت وتشابكت، ووجدت نفسي أمام مدينة جديدة لا عهد لي بها من قبل، وكأنّي لم أقطن فيها قط؛ فلم أصِل إلى بغيتي إلاّ بعد جهد جهيد ووقت مديد وسؤال عنيد؛ وأنا المواطن العربي الذي عاش في مدينة لا تزال طرقاتها بل وأرصفتها التي عبّدها الاستعمار شاهدة على إتقانه لعمله إلى اليوم. ولئن خضعت هي أيضًا لقانون الحركة والتغيير فإنّ التغيير الذي حدث إنّما هو الاضمحلال المتدرِّج نحو الزوال بسبب الإهمال واللامبالاة والتسيّب.

ومن أجل صياغة مفهوم متكامل للمجتمع التاريخي، يربط مالك بن نبي ربطًا عضويًا بين مصطلح المجتمع ومجموعة من المعايير؛ وأهم معيار من هذه المعايير هو قانون الحركة الذي يتضمّن الحركة ذاتها، ومبرِّراتها ووسائلها واتجاهاتها وأهدافها. ومن هنا، فإنّ صياغة مفهوم المجتمع التاريخي لا

[20]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 9.

يمكن إلا أن يكون ضمن هذا الإطار لنتمكّن من إضفاء الدلالة التاريخية الضرورية له، عليه.

كما أنّ هذه المعايير أو بالأحرى المحدِّدات هي التي تعطينا القدرة على التمييز بين التجمع البشري وغيره من التجمّعات الأخرى. وهكذا، يصبح قانون الحركة (Law of Movement) عاملًا حاسمًا للتمييز بين التجمعات المختلفة، البشرية منها وغيرها. وبناء على ذلك، فإنّ الأشخاص الذين يمارسون عملية التغيير هذه إنّما يفترض فيهم فهم طبيعة الحركة التغييرية التي هم بصدد إنجازها وأهدافها ووسائلها وأدواتها كما متطلبات النجاح في هذا الإنجاز. غير أنّه يمكن الخلوص إلى أنّ فكرة الحركة ذات طابع تربوي أيضًا والسبب في ذلك هو أنّ السياق الذي تناول منه مالك بن نبي موضوع الحركة يدل على ذلك بوضوح. فقد أشار إلى أنّ حركة التغيير التي يقوم بها المجتمع أثناء مسيرته التاريخية إنّما تبدأ بتلك العملية المنهجية التي تستهدف تغيير خصائص شخصية الإنسان لنقله كما أشرنا سابقًا من وضعية الفرد إلى وضعية الشخص، ومن ثمّة تأهيله للاضطلاع بمهمة تغيير المجتمع وتمكينه من أداء وظيفته التاريخية.

ولا شك في أنّ عملية تغييرٍ هذه طبيعتها وتلك أهدافها ليست إلاّ عملية تربوية هادفة ومنهجية. ومن هنا، فإن الطبيعة التربوية للعملية التغييرية التي تبدأ بميلاد المجتمع أضحت واحدًا من أهم عناصر عملية بناء المجتمع التاريخي.

ولهذا، فمن غير المعقول التفكير في مشاريع البناء والنهوض بمعزل عن البناء التربوي للإنسان من حيث هو العامل المركزي للمشروع كلّه. فقد وجدنا في التاريخ المعاصر بعض الدول التي قطعت شأواً في التقدّم وقد كان الأساس الذي قامت عليه هو مبدأ الاستثمار في الموارد البشرية أو ما أسماه مالك بن نبي الاستثمار الاجتماعي (Social Investment)، على الرغم من فقرها الظاهر في مجال الموارد الطبيعية والمالية. وأبرز مثال على ذلك دول سنغافورة وهونغ كونغ وتايوان وماليزيا وبعض دول الشمال الأوروبي.

بناء المجتمع التاريخي

في البدء نشير إلى أنّه لا فرق عند مالك بن نبي بين بناء المجتمع التاريخي وبناء الحضارة أي، المجتمع المتحضِّر.[21] والسبب في ذلك هو أنّ المجتمع التاريخي والمجتمع المتحضِّر سيان في خطّة البناء وخصائص العناصر البشرية المكوّنة لهما وطبيعة الوظيفة التاريخية المتمثِّلة في تحقيق أهداف الوجود البشري في الحياة باعتباره وجودا هادفًا ومتميِّزًا عن وجود المخلوقات الأخرى. ولهذا، لا يمكن العثور على مجتمع بمواصفات المجتمع التاريخي ليس مجتمعًا متحضِّرًا في طبيعته.

ولتوضيح الأساس الذي ينطلق منه المجتمع لبناء نفسه، يشير مالك بن نبي إلى الجذور الروحية للمجتمع البشري ويجعلها قانونًا مطّرِدًا يتحكّم في نشأته كما في تطوّره وأفوله. فميلاد أي مجتمع إنّما

[21]- مالك بن نبي، تأملات: 162.

تظهر علاماته الأولى مرافقة لظهور فكرة تتّخذ طابعًا دينيًا ما في فجر حضارة من الحضارات؛ [22] من حيث أنّ هذه الفكرة يُضفي عليها أصحابها نوعًا من القداسة. [23] وبعبارة أخرى، فإنّ «الظرف الاستثنائي الذي يسجِّل نقطة انطلاق في تاريخ مجتمع ما يتّفق مع ظهور فكرة دينية في فجر حضارة معينة». [24] كما أنّ هذه الفكرة التي غرست بذرتها في التاريخ تحمل في ذاتها المكوِّنات الأساس التي سوف يتشكّل منها المجتمع في التاريخ، كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود. وبالنسبة إلى مالك بن نبي، تعدّ هذه الرؤية في منتهى الأهمية باعتبارها الأصل الذي ينطلق منه المجتمع في التعبير عن نفسه والانتقال من وضعية الوجود بالقوة إلى وضعية الوجود بالفعل.

ولقد سبق أن بيّنا أنّ المجتمع التاريخي قد يتمثّل في بداية عهده الجنيني في فكرة يحملها شخص يمثّل أمّة كما هو حال الأنبياء أو رجالات العلم والإصلاح الذين استطاعوا تغيير مجرى التاريخ البشري في لحظة من لحظات الوجود البشري على الأرض. [25] وبما أنّ العامل البشري يمثِّل الوحدة الأساس لبناء المجتمع، فإنّ النجاح في مثل هذا البناء إنّما يتوقّف على مدى نجاحنا في صياغة الشخصية البشرية وتأهيلها لمثل هذه المهام التاريخية الكبرى. وبناءً على هذا الأساس، يعتبر مالك بن نبي صياغة رؤية واضحة عن النموذج التربوي المنشود أو بتعبيرنا حاليًا عن طبيعة المنظومة التربوية التي سوف تتكفّل بإعداد النموذج المنشود والمؤهَّل لهذه المهمّة أمرًا في غاية الأهمية إذ لا يمكن تجاوزه بحال.

المحافظة على المجتمع من التدمير

لم يكن مالك بن نبي مهتمًّا بقضية بناء المجتمع المتحضِّر بقدر ما كان يولّي اهتمامه أيضًا للتفكير في الآليات التي تمكِّننا من المحافظة على هذا البناء ذاته، وذلك من أجل ضمان استمراره في التاريخ استمرارًا فعّالًا بشكل يضفي عليه دلالة تاريخية تبرِّر جدوى هذا الاستمرار ومقتضياته الرسالية. ولهذا، يمكن العثور في مختلف كتابات مالك على منهج متكامل يتضمّن آليات المحافظة على البناء الاجتماعي من أن تتناوله يد التخريب والتهديم أو القوارض كما يفضّل مالك بن نبي أن يسمِّيها؛ وسواءً أكانت هذه «القوارض» داخلية أم خارجية. ومالك بن نبي رحمه الله تعالى ليس بدعًا في هذا المجال. إنّ هذا المنهج في النظر إلى آليات بناء المجتمع المتحضِّر والمحافظة عليه إنّما هو من صميم المنهج القرآني في بناء الأمم الرسالية المتحضِّرة. وقد سبق علماء الإسلام القدامى مالك بن نبي في هذا المجال. إذ نجد مثلاً الإمام أبا إسحاق الشاطبي (توفِّي سنة 790 للهجرة) قد أصّل هذا المنهج القرآني عند استعراضه لنظريته

---

[22]- مالك بن نبي، شروط النهضة: 51.

[23]- قد تكون طبيعة الفكرة مشروعًا يرى فيه أصحابه خلاصهم في الحياة الدنيا أو ما بعدها، أو النموذج الأمثل للحياة استلهموا فيه وحيًا منزّلًا أو فلسفةً وضعية أو أسطورةً ما أو غير ذلك. والمهمّ أن صفة القداسة تكون ملازمة للفكرة التي يتمّ تبنّيها من طرف هؤلاء.

[24]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 55.

[25]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 17.

في مقاصد الشريعة الإسلامية. وقد جاء في مستهلّ المجلّد الثاني من كتابه الموسوم «الموافقات في أصول الشريعة» أنّ:

«تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق... والحفظ لها يكون بأحد الأمرين، أحدهما ما يقيم أركانها ويثبّت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود. والثاني ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقَّع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم».[26]

ومن هنا، فإنّ مراعاة المقاصد من جانب الوجود إنّما يتمّ بفعل ما به قيامها وثباتها واستمرارها، ومراعاتها من جانب العدم إنّما يكون بترك ما به تنعدم وينقطع وجودها».[27] وبناءً على هذا، يعتبر مالك بن نبي أنّ الأمر لا يتعلّق بالمجتمع المسلم فقط وإنّما هو ظاهرة مطّردة في التجمّعات البشرية كلّها. ولعلّ هذا التعميم يتّفق فيه مالك بن نبي مع الإمام أبي إسحاق الشاطبي عندما أكّد أنّ هذه المقاصد وسبل المحافظة عليها معتبر في كل ملّة.[28]

ولهذا، تراه يؤكّد أنّ «جميع التعاليم المقدّسة التي يحيط بها مجتمع ما –ولو كان بدائيًا- حياته الاجتماعية، هي في الواقع ترجمة ذات أشكال خاصة عن هذا النظام الدفاعي الذي يحوط شبكته... وجميع القوانين التي أملتها السماء، أو وضعتها محاولات البشر، هي في حقيقة الأمر إجراءات دفاعية لحماية شبكة العلاقات الاجتماعية، وبدونها لا تستطيع الحياة البشرية أن تستمر لا أخلاقيًا ولا ماديًّا».[29]

إذن، يعتبر مالك بن نبي هذه الآليات الدفاعية ذات دور حاسم في ضمان سلامة المجتمع من كل ما من شأنه أن يعطّل استعداده للاضطلاع بوظيفته التاريخية، مبرِّر وجوده واستمرار هذا الوجود. وأضاف مالك بن نبي إشارة مهمّة في هذا السياق، وهي أنّ المنظومة الثقافية للمجتمع باعتبارها منهجًا للتربية، هي التي تضطلع بمهمّة ضمان ها الجهاز الدفاعي.

ويتمّ ذلك من خلال ما توفِره لنا الثقافة من آليات الفهم والتعامل مع مختلف أنواع عوامل الهدم والتخريب الاجتماعي سواءً أكانت من الداخل أم من الخارج. ولهذا، فمن أهم ما ينبغي أن تحذر منه مشاريع بناء مجتمع ما بعد الاستقلال إهمالها اعتبار الرؤية المتكاملة للبناء أصلاً من الأصول التي ننطلق منها في التفكير والعمل أي، مراعاة البعدين في نفس الوقت، البناء والمحافظة على البناء لضمان الاستمرار.

---

[26]- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ج2، ص. 8.

[27]- نفس المرجع السابق: هذا التعليق كتبه الشيخ العلاّمة عبدالله درّاز رحمه الله تعالى، المدرِّس بالأزهر الشريف سابقًا.

[28]- نفس المرجع السابق للإمام الشاطبي وفي نفس الصفحة.

[29]- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: 94